حديقة المقتطف

صديقي ! ...

للكاتب الالماني الشهير آرثر شنيتزلر

Arthur Schnitzler

نقلها : ايزاك شموش

شهوة الموت

من ديوان (أغاني الفردوس)

صديقي أ...

للكاتب الالماني الشهير ارثر شنيتزلر Arthur Schnitzler

نقلها ايزاك شموش استاذ اللغة والآداب العربية في الجامعة العبرية بالقدس

صديقي أ... (واسمهُ الحقيقي مارتن راند) الطالب في معهد دراسة اللغات ، كان شاعراً شابًّا ، لم يشجهُ النقّاد قط ، ولم يستطع ابداً أن يقتني بقية الاقاصيص التي كان ينشرها في صحف الملحقات ، ومع ذلك ، فقد كان كالكثيرين من اضرابه لا يبأ بما اذا كنا نجده أو لا نجده على شيء من الاهلية والفن ، وكان يسير هذه الحياة مع رفيقة غير منظورة ، مع الهة الشعر ، ويقع منها على ساعات ستة حقيقية

الاّ انهُ كانت تنتابهُ في بعض الاحيان ازمات سوداوية ، تسببها ليس معاكسات الدهر العادية . ولا الهموم البغيضة التي يذوقها كل انسان ، ولكن .. عند ما يكون صديقي أ... حزيناً ، فلانهُ يكون منهمكاً في وضع قصة محزنة يموت فيها من شدة الحب اميرة بعيدة ، او يقتل بسيف احد الخونة فارساً مقداماً . أو يبتدع قصة تحول فيها جنية شريرة دون سعادة شخصين طيبين طاهرين

وعلى نقيض ذلك . كان أ... يطير فرحاً عند ما ينشد الربيع ، او ينشد ليلة سكر يقوم فيها وجه مستعار يقبيل ثغر رسام شاب منتخب في ثوب نوبي سري . وهو يهمس في أذنه : « اني لك ولن يقوى احد على سلبي منك ! »

وا أسفاه ! ان الامر لا يحتمل الجدل ، لقد كانت هذه الدلائل الاولى على جنون صديقي أ... وكثيراً ما كنت اوبخهُ ، وكثيراً ما كنت اعظهُ بصورة رضية ، اذ أن صداقتهُ الوثيقة مع الاشباح كانت مشؤومة في رأيي . ألم يكن من الافضل ان يتعرف على الحياة ، وان يختار له رفيقات عراوات أو شقراوات أمتع وألذّ بما لا حدّ له من تلك المخلوقات الخيالية الشاردة التي يبتدعها تصوره ؟

وذات مرة ، اتبع نصيحتي ، واتخذ لنفسه خليلة .. كانت مغنية طبعاً .. بل اني لمبالغ بعض المبالغة ، اذ انها اذا كانت أصبحت خليلته ، فلانها ارتمت في

احد الامناء عند الخروج من دار التمثيل ، بين ذراعيه ... انهُ لمبدأ حزين لقاهرة كانت نهايتها حزينة ايضاً ، ولم ادرك حقيقة ذلك الاَّ عندما كان كل شيء قد انتهى

***

كنت الى جانب أُرغُني ذات يوم بعد الغداء أُهوم في كرسي الواسع واذا بصديقة أ... الشابة تقبل عليَّ : وكنت أرهف السمع واحدى يديَّ على الارغن ، لانحن متاثر يحتضر شيئاً فشيئاً ، وأسائل زائرتي بالنظرات وقد غرَّاني ذهول غريب : لقد كانت وحدها ، ولم يسبق لها قط ان جاءت اليَّ بدون أ... فأخذت احدق النظر في الباب لعلي أشاهده ينبعها ، فهمت سؤالي الصامت وأجابتني بصوت تخنقهُ العبرات

— هو في البيت ... انهُ يشتغل

— وهل أنت قادمة من عنده ؟

ورجوتها ان تتخذ لها مقعداً على الديوان ، وجلست على كرسي بالقرب منها

— وما كاد يستقر بها الجلوس حتى أجهشت بالبكاء

— ماذا حدث يا صديقتي الصغيرة ؟

لم تجب ... انتظرت جوابها بصبر ، ثم استطردت :

— اذن ؟

قلت لها ذلك بهدوء عظيم فأخرجت منديلها وكفكفت عبراتها

— اضرب لحناً مفرحاً جيداً ، لحن (فالس) ... حينئذٍ استطيع ان أفضي اليك بكل شيء ، فاتجهت الى الارغن وضربت اول لحن خطر لي ، واذ ذاك أخذت تتمتم :

— انهُ عادة لا يحبني

فتوقفت عن العزف واتخذت هيأة الدهش ، مع ان دهشتي كانت مصطنعة ، اذ اني كنت انتظر شيئاً من هذا القبيل ، فانتحبت في حزن :

— استمر في العزف فاحتجت :

— ليس هنا موضع لحن (فالس)

وطفقت اعزف لحناً حزيناً لا بد بهذه المناسبة الارتاك الذي كان يسود بيننا .

وكم آسف لاني عزفت ذلك اللحن ! لقد اصبحت عاقي على ذلك ضاناً مبعثهُ الوساوس

فاستأنفت الفتاة :

— لا بدَّ انهُ أصبح يحب امرأة أخرى، اذ سمعته يصرخ هذا الصباح مرات عديدة : « أنت لست مثلها . . . آه . . . أنت لست مثلها ! » وكنت أحاول بعد ذلك ان أعانقهُ ، فكان ينظر اليَّ كأنهُ خائف مني بعيد ويقول لي « اذهبي ! . . . انك تزعجيني . . . كان عليك ان تشعري بذلك » فجمدت في مكاني . . . أما هو فقد استمرَّ يكتب ، ووجههُ يشتعل ، وعيناه تلمعان ، وبعد برهة التفت اليَّ وعلى تحقق انني لم أتحرك ، صرخ : « ألا تزالين هنا ؟ » . . . حينئذٍ ذهبت . . . فسألتها :

— وماذا تظنين فهزَّت أكتافها . . .

— أما أنا فسأحاول ان أقول لك ذلك وان كان يتعذر إفهامك : ليس لك مزاحمة من لحم ودم ، انك من تتحدثين عنها لا وجود ولا حياة لها الاَّ في مخيلة صديقنا أ . . . فحدقت في وجهي بصمت ، فاستأنفت :

— أنا أعرف حق المعرفة . . . ان فيهِ مسًّا جنونيًّا !

وقد بدا عليها شيء من الدهشة للهدوء الذي عبرت فيهِ عن تلك الحقيقة فصرخت :

— اذن . . . هو يفزعني !

— كلاَّ ! لا ينبغي ان تفزعي ، فقد ظننت انك تستطيعين ان تسمري حبه بقولك له ذات يوم : أ . . . العزيز ! أنا لا وجود لي ، ما أنا الاَّ بطلة جارية من احدى أقاصيص الجان . وهذه السعادة التي تذوقها بين ذراعي ان هي الاَّ حلم من الاحلام

— اذن هو نصف مجنون ؟

— بل هو نصف شاعر ، أي مجنون ! ولكن . . . لا تبكي . . . وشرعت أعزف لحن (الفالس) الذي كانت قد طلبته مني ، فنهضت بهدوء واتجهت نحو الباب ، ولما حاولت مراقبتها منعتني باشارة من يدها

— كلاَّ ! اني سأعود

وفي اليوم التالي ذهبت لأرى صديقي أ . . . ، وكان انتظاري قد أضجره ، ومع ذلك فقد رأيت أربع شموع حمر تحترق من حوله ، اذ انهُ لم يكن يستطيع العمل الاَّ على ضوء الشمع الاحمر ، وكان ينظر بعين كامدة الى الورق الذي تتراقص عليهِ

براعته بدون توقف . فأخذت أطفىء الشمعات الواحدة تلو الاخرى ، ولم يشعر بوجودي الا عندما أطفأت الشمعة الرابعة ، فابتدرني :

— أهذا أنت ؟ فصرخت بلهجة حازمة :

— أ... دع كل هذا وقم حالاً لتفدى معاً والا سميت لسجنك في دار المجانين

فحدجني بعينيه الواسعتين ، العديمتي البريق

— لقد أتت صديقتك الي البارحة ، فماذا فعلت معها ؟ فأخذ يتبسم :

— لا تحدثني عن هذه المخلوقة البشرية المسكينة ، اني لا أريد ان أسمع شيئاً عن الجنس اللطيف بعد الآن !

— طبعاً انت لا تحب النساء الحقيقيات لانهن يقترفن جريمة سائر المخلوقات البشرية فيأكلن ، ويشربن ، ويحببن ، ويعبرن الحياة بما فيها من تفاصيل وفصول الا انه قاطعني :

— امرأة واحدة كائنة في نظري ، ولن تقوى على انتزاعي منها ، اسمع . . . كانت ذات مرة . . .

وأنشأ يقص علي قصة فتاة رائعة الجمال كانت تحيا في جزيرة من جزائر المحيط الهادىء ، وكان اسمها « تركيز » ، وكانت على نصيب عظيم من الجمال الى درجة ان انساناً او الهاً لم تقع أنظاره على مثلها وكان أ . . يشعر بقصوره وعجزه عن ايراد الاوصاف اللازمة ليصف جمال المتحدث عنها ، وأخبرني وقد غارت عيناه انه منذ اليوم الذي تسلطت فيه « تركيز » على قلبه وعقله ، لم يعد يشعر بأقل عاطفة نحو اي امرأة ، فسألته :

— وهل تحبها ؟

— بل أعبدها ! . . . ولكن واأسفاه ! . . . انها لن تلبث أن تموت . . . اذ يلذعني ان تموت !

فأخذت أهز رأسي ، اذ كنت قد ارتبت حقاً ، فاستطرد

— هنالك امير افريقي احب « تركيز » حباً جماً مشؤوماً . . .

— وهل أصبحت تغار منه ؟

— وماذا أستطيع ان افعل ما دامت تحبه ؟

— ولكن ... أيها المجنون ... اجعل الاسير الافريقي فريسة لنمر ملكي ، وانزل على ضفاف الجزيرة المقدسة ، شاعراً باسم أ ... حتى اذا رأته ...

— انهُ لا يستطيع !

وكانت تلوح على أ ... ملامح الاقتناع الشديد بهذه الحقيقة

— ولمَ لا ؟ ليس عليك الاَّ ان تريد ذلك ! ان جميع خيوط هذه القصة هي بين يديك ! كل ذلك قد ابتدعهُ جنونك ! أن « تركيز » الاَّ من مبتدعات مخيلتك!

فارتسمت على ثغره ابتسامة صفراء ، وقال بهدوء :

— كلاَّ ! لنهضت أذرع غرفته طولاً وعرضاً لأهدىء روعي .

— اذهب ... انك تزعجني ! فوقفت ، وحدّجتهُ بالنظرات

— سأعود في ساعة الغداء

وبينا انا أقفل الباب ابصرت أ ... يشعل الشموع من جديد ، مع ان ضوء النهار كان قد غمر الدنيا ، وقد أبصرت الناس في الشوارع يسيرون بخطوات ثابتة ، فعجبت لهذا المقدار من الحيرة في بادىء الامر ، ولا غرو ، فان من يخرج من دار المجانين يعجب لكل شيء سليم

وعند الظهر اتيت باب دار صديقي أ ... مقفلاً بالمزلاج .

— عد هذا المساء ، قال لي

وعند المساء كان الباب مقفلاً ايضاً ، فصرخت :

— ألم تمت « تركيز » بعد ؟

فسمعت أ ... يتنهد تنهدات عميقة : لا شك ان « تركيز » كانت تنازع وعند الصباح عدت اليه ، لم يكن الباب مقفلاً ، ولكن أ ... كان جالساً الى منضدته وهو على أشد ما يمكن من الشحوب ، فسألته :

— ماذا اصابك ؟ فتمتم :

— انها تحتضر ! فأجبت :

— يا للحظ

فأغرورقت عيناه بالدموع دون ان يفهم ، فقلت له وقد أحسست بشيء من الضيق :

— هيا أسرع

— لا أستطيع

— انك مضحك ! أنت تحنق على نفسك ! كل هذا لا فائدة فيه . . .

— لا فائدة فيه ؟ . . . أنت لا تستطيع ان تفهم

فتوجهت الى النافذة وفتحتها :

— ألمس بهذا الهواء البارد ؟ أتشعر برقة هذا الهواء الصباحي الذي يعبث الاوراق على منضدتك ؟ أتبصر وقاحة الشمس التي تبرز من رأسك الملتهب ، والتي تذهب الغبار المتراكم على أرض غرفتك ؟ أترى هذا العالم المتعدد الالوان الذي يسبح في زرقة السماء ؟

فأطل من النافذة ، وأسرع فأغمض عينيه ، كأنما النور يؤذيهما ، ومع ذلك فقد ترك نفسه بين يدي أقودها كما اشاء ، ولكني عبثاً حاولت ان أخلق محادثة لانهُ لم يكن يجري جواباً

— أتريد ان نستقل عربة ؟

— نعم أريد

كانت هذه اول جملة فاه بها ، فتأسيت بها ، وأسرعت فأوقفت عربة مكشوفة ذهبت بنا الى غابة فنا ، فلما توسطنا الحقول ونحن نسلك ذلك الطريق الذي تظلله اشجار كبيرة ، مورقة ، لمحت صديقي يبدي حركة دهش وانذهال ، وشرعت عيناهُ يستعيد حواسه ويتمم فحصه ، وسألته :

— هذا جميل ، أليس كذلك ؟

ولكن ابتسامته كانت قد غارت ، وكأنما هي كانت تعبر عن لسان حاله :

« ألا تزال تظن ان هنالك شيئاً يقوى على انقاذي ؟ »

وتناولنا طعام الغداء في أحد الفنادق ، وكنت أشجعهُ على الأكل ، ولكنهُ لم يمد يده الى صحن من الصحون ، وانما كان يتنهد ، ويقول لي :

— انت نعم ، ولكنك لا تستطيع ان تفعل شيئاً في سبيلي ؟

— بل أستطيع كل شيء ، أستطيع ان أعيد كل شيء الى نظامه ، اذا أردت ان تكون عاقلاً . اني أفهمك جيداً ، وأفهم ان روحك المريضة ، هذه الروح

الشاعرة . كان لا بد لها ان تقع في حب «تركيز»

فقاطعني :

— وما دامت «تركيز» تحتضر فينبغي ان اكون شقيًّا !

وأخذت شفاهه ترتجف ، وكانت الشمس قد شرعت تتحدر للغيب ، والضوء يبسط أجنحته بهدوء على الحقول والنابات الندية ، فسمته يقول :

— أسرع ! أسرع !

وانطلقت العربة تعدو نحو المدينة ، وكانت الاشباح المتحركة توهمنا ان المنازل الاولية قريبة جدًّا ، وانا سنبلغ المدينة قبل ان يجن الليل ، وكان صديقي آ . . لا يفتأ يكرر :

اسرع ! اسرع !

فسمعه السائق ، وأهب الجياد ، وكان آ . . ينتحب :

— أريد أن أعود ! أريد ان أعود !

— دع عنك كل شيء . . . ينبغي عليك ان تجتنب السل هذا المساء . . .

فنظر اليَّ دهشاً :

بل ينبغي عليَّ ان اشتغل !

وكان تنفسه متهدجاً ، لاهثاً ، يحبث لفت اليه انظار السائق الذي تفرس فيه دهشاً ، ذاهلاً

وكنت ادعوه من حين لآخر أ . . . ولكنه لم يكن ليسمعني . . .

وبينا نحن نجتاز الشوارع المظلمة عرض لخيالي مشهد لم استطع ان اتخلص منه . . . تخيلت «تركيز» ممددة في تابوت بلوري ، وأمامها شاعري ، يأكله الحزن وعيناه جامدتان ، يتمشى فيها ألم عميق يقصر عنهُ الوصف

ولما وقفت العربة عند دار آ . . . قفز الى الارض ، وأخذ يصعد السلالم بسرعة عظيمة الى درجة انني عند ما لحقت به كانت شحوبه الحمر قد اوقدت ، فجلس الى منضدته دون أن يشعر بوجودي ، وقررت ان امضي الليلة بالقرب منهُ لان حالته كانت تقلقني قلقاً شديداً

كانت يراعته تجري تائهة على صفحات القرطاس ، وكانت النافذة مفتوحة

يضطرب ضوء الشموع من نسمات الهواء التي تهب منها . وكانت الاوراق المبعثرة تدور حول المنضدة ، وكان محياه يزداد تأثراً من دقيقة لاخرى حتى غدا شاحباً كوجوه الاموات

وقد ثبت لديَّ ذات لحظة ان « تركيز » تحتضر ، اذ ابصرت يد أ . . . يتابها التباطؤ ، ونفسه يعروه الاختناق ، فلم يلبث ان ترك قلمه وتهالك على المنضدة ، وهو يجهش في البكاء بمرارة وحزن

فتأسيت بذلك ، وقلت لنفسي : « لقد انتهى الامر ! ان اثر الجمال قد تلاشى والصورة الخيالية الفظيعة التي عاش معها بضعة ايام قد اندثرت ! »

وخيل اليَّ ان الجو قد تغير ، وان الارواح الشريرة تهرب من النافذة ، وان ضوء الشموع قد اخذ يلطف ، وان الهدوء قد عاد الى صديقي المسكين ، اذ كانت نوبة البكاء قد خفت بعض الشيء

فتمددت على الديوان . واستسلمت للرقاد ، ويظهر اني رقدت طويلاً ، اذ لم يكن قد بقي شيء من الشموع عندما استيقظت ، أبصرت أ . . . فاقد الحركة ، منكس الرأس ، فاقتربت منه ، ولمحت في نظراته ما يبعث على الاطمئنان ، فقلت له :

— هيا قم ارقد فأجابني بصوت عادي :

— عُدْ الى منزلك ، ولا تعد تقلق نفسك من اجلي فصرخت فرحاً

— آه أ . . . ! هل انتهى كل شيء ؟ فأكبَّ عليَّ يعانقني ويقول :

— نعم ، انتهى كل شيء ! — اذن اسمح لي ان اتم ليلتي على ديوانك

— لك ما تريد

وكانت تبدو في صوته آثار الصداقة الصميمة . . . لم تفارقني نظراته وانا أتمدد على الديوان ، واخذ يتبسم بلطف عندما اشرت عليه بأن يتمدد هو أيضاً . . . بل اني أحسست بنظراته ترتقي حتى بعد ان استغرقت في الرقاد

استيقظت مع الفجر ، لم يكن صديقي أ . . . في الغرفة ، فنهضت واقتربت من المنضدة ، فضحت على ضوء الفجر الضئيل ورقة مطوية أربع طيات ، وقبل ان أفضها ، أسرعت الى سرير صديقي ، فألفيته شاغراً لم يمسسه أحد ، فعراني ارتجاف

مريع، وأحسست اني أصبحت فريسة اضطراب غريب . . .

أول نظرة بدرت مني اتجهت نحو الشموع ، فاذا بها مرمية الى الارض مع الشماعة ، الى جانب المدفأة . . . بحثت بأنظاري عن الاوراق المخطوطة : كانت الاوراق البيضاء ما تزال على المنضدة . . . حينئذٍ عزمت على ان أنهض الورقة ، فاذا بها هذه الكلمات : « مات « تركيز » فانتهى كل شيء ! »

فاصطكت أسناني وصرخت : أين هو ؟ . . . رباه ! . . . أين هو ؟ . . .

أسرعت الى مدخل الدار : لم يكن فيه أحد ! . . . فتحت الباب : لم يكن قفص السلم مضاء . صعدت الى الغرفة ، ولمحت شمعة من جانب المدفأة ، فأشعلتها وأسرعت الى صحن الدرج ، وانحنيت على الدرابزون ، فأبصرت . . . شبحاً اسود . ممدداً على الارض . فمددت يدي التي تحمل الشمعة لأتبين بوضوح أكثر فسقطت قطرة شمع على الجسم الصديم الحراك ، فهرولت أنزل السلالم مسرعاً والشمعة في يدي حتى اذا أدركت أسفله أبصرت جثة هامدة . . . .

كان وقع اقدامي على السلالم قد أيقظ الجيران ، فهرع الناس من كل جانب يتساءل بعضهم : « ماذا جرى ؟ » . . . ويرسل البعض الآخر صرخات مفزعة

وقد رأيت نفسي مضطراً الى اعطاء شرح لذلك فقلت :

— لقد كان مجنوناً ! . . .

واذا أحد الحضور يأخذ الشمعة من يدي ، أوظنهُ كان يرتجف ! . . .

***

لقد قرأت القصة الاخيرة التي كتبها صديقي آ . . . انها قصة فاشلة تماماً ، لا يكاد يتبين فيها أثر الفن قط !

ولا شكَّ ان هذه آخرة مؤسفة للقصة ، ولكن حرصي على صحة الرواية يضطرني الى قول الحقيقة . . . ومع ذلك ، فقد كان صديقي آ . . . شاعراً عظيماً اذ أي مخيلة قوية ينبغي ان يكون قد حباه الله بها ، ليستطيع ان يخلق امرأة يحبها الى حد الجنون ؟ حتى لا يقد يستطيع الحياة حين قضت المخيلة على هذه المرأة الاثيرة ؟ ؟ ؟

آه . . . ان لربات الشعر لاهواء غريبة ! ! !

شهوة الموت

«من ديوان (أغاني الفردوس)
الذي أخرجه الياس أبي شبكة ،
وفي باب مكتبة المقتطف كلمة عنه»

ناقمٌ على السماءْ حاقدٌ على البَشَرْ
ساخط على القضاءْ ثائرٌ على القَدَرْ
غير فطرة الماءْ لا أحبُّ في البَحَرْ
صرت أمقت الصفاءْ صرتُ أعشق الكَدَرْ
غير مشهد الدماءْ لا أحبُّ في الصُّوَرْ
ناقمٌ على السماءْ والبشر !

***

جُلِّلي ليَ الجسدْ واسكبي لي الرحيقْ
لا تفكري بغدْ قد يجي ولا يجيءْ
ما لنا وللأبدْ إنّ سرّهُ عميقْ
الهوى اذا اتّقَدْ كان للبلى طريقْ
فلْنَمُتْ يداً بيدْ ولْنُغَيِّبْ البريقْ
بين شهوة الجسد والرحيقْ